البعد الاستشراقي في كتاب "القصص القرآني-قراءة معاصرة" لمحمد شحرور عرض ونقد *

The Orientalist Dimension in the Book "The Quranic Stories - A Contemporary Reading" by Muhammad Shahrour - Presentation and Critique

أ.د آية الله عاشوري

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية (الجزائر)، (مخبر التأويل وتحليل الخطاب)

ayetallah.achouri@univ-bejaia.dz

ملخص:

لقد اتخذ القرآنيون من القراءة المعاصرة للنص القرآني بديلا عن النصوص الشرعية، بل وحاولوا تفسير القرآن الكريم بالهوى محرفين الكلم عن مواضعه، ليهرفوا بما لم يعرفوا ويطغى عليهم بذلك الفكر الفاسد والرأي الكاسد.

من أولئك المتشدقين المفكر الحداثي "محمد شحرور" الذي سار على نهج المستشرقينالذين حاولوا جهدهم بثّ سمومهم المغلّفة بالشبهات قصد اصطياد من بقلبه ضعف، ليعتمد على طروحاتهم الفكرية ومرجعياتهم العقدية، متواريا خلف مسمى"القرآنيين" والقرآن منه براء، إذ توسّل المنهج التاريخاني الذي اعتمده المستشرقون في دراساتهم حول الإسلام، قصده من وراء ذلك الترويج لتأويلاته التي لا مرجع لها، وتفسيراته التي لا أصل لها، مُحْدِثا بذلك شرعا في الدين لم يأذن به الله عز وجل.

بناء على ما سبق نحاول تبيان البعد الاستشراقي الطاعن في القصص القرآني من خلال قراءتنا في كتاب "القصص القرآني-قراءة معاصرة" لمحمد شحرور، وتجلية ترّهاته وكشف شبهاته، وإبطال ادعاءاته وما وقع فيه من مغالطات عقدية، فكرية ومعرفية.

الكلمات المفاتيح: القرآن الكريم، القرآنيون، القصص القرآني، البعد الاستشراقي.

Abstract:

The Quranic interpreters have adopted the contemporary reading of the Quranic text as an alternative to the legal texts, and they even tried to interpret the Noble Quran according to their desires, distorting its words from their intended meanings, raving about what they do not know, and thus the corrupt thought and the unsuccessful opinion prevailed over them.

*

تاريخ استلام البحث:2024/06/26	تاريخ قبول البحث: 2024/09/25	تاريخ النشر: 2024 /10/15

Among those pompous thinkers is the modernist thinker "Muhammad Shahrour", who followed the path of the Orientalists who tried their best to spread their venoms coated with doubts in order to catch those with weak hearts, relying on their intellectual propositions and their doctrinal references, hiding behind the title of "the Quranic" while the Quran is innocent of them. They resort to the historical approach adopted by the Orientalists in their studies on Islam, aiming behind that to promote interpretations that lack reference, and explanations that have no origin, thus creating in the religion what God Almighty did not authorize.

Based on the above, we try to clarify the Orientalist dimension that pierces the Quranic stories through our reading of the book "The Quranic Stories - A Contemporary Reading" by Muhammad Shahrour, and to expose his absurdities and reveal his doubts, and refuting his claims along with the doctrinal, intellectual and epistemological fallacies he has fallen into.

Keywords: The Noble Quran, The Quranic interpreters, The Quranic stories, The Orientalist dimension.

مقدمة:

انتهج أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم المنهج الاستشراقي لتوافقه ومراميهم في تجريد النص القرآني من قدسيته، إذ اتخذوا منه سلاحا في صراعاتهم الفكرية، وإقرار توجهاتهم العقدية الفاسدة، والانتصار لآرائهم الكاسدة، وذاك ما سار عليه محمد شحرور في قراءته المعاصرة للقصص القرآني، الذي توسّل ما ذهب إليه المستشرقون في طروحاتهم العقدية التي أرادوا التأسيس لها بناء على مرجعياتهم الفكرية الفلسفية.

تعجّ مؤلفات محمد شحرور بالشبهات التي أراد من خلالها بثّ سمومه الفكرية متَّبِعا في ذلك سَنَن من سبقه من أهل الزيغ والأهواء وكذا المستشرقين.

حاولنا من خلال بحثنا هذا عرض تلك الشبهات ودحضها بما يتوافق والقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، لتنكسر أباطيله على صخر الحق.

1. دحض شبهة تاريخانية القصص القرآني

اختار شحرور عنوانا فرعيا وسمه بـ: "القصص المحمدي بين التاريخي واللاتاريخي"، خلال تعريفه للقصص القرآني وعرضه لمنهجيته في الدراسة، في الجزء الأول من كتابه، أورد ضمن حديثه عن التنزيل الحكيم: بين النص التاريخي وتاريخانية النص، وهمّه الأوحد إثبات أن القرآن الكريم وليد البيئة الزمانية

والمكانية، وذلك بغية إسقاط كل ما يتعلق بالتشريعات من نصوص القرآن باعتباره لا يتماشى وحركية الزمان وتغير المكان، وهذا قول باطل مردود على صاحبه، إذ يقول: «ولكن فيما يخص القصص فإننا نقول بتاريخيتها، وليس تاريخانيتها، ونعني بذلك أن هذه القصص من التاريخ لا تشريع فيها.»[1]

المنهج التأريخي هو الطريقة المنتهجة في دراسة التاريخ وفهم الماضي، يهدف إلى تحليل الأحداث وتفسيرها وفق ما يتوفر من مصادر متاحة، وذاك ما توسله المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم عامة والقصص منه خاصة، إذ «يعدُّ المنهج التأريخي من المناهج الأكثر شيوعًا في دراسة القصص القرآني، وهو يقوم على جمع الحوادث التاريخيَّة التي يُظنُّ أنَّ لها علاقة بالقصص القرآني، فيعمد إلى تبويبها وترتيبها، ثم إصدار حكمه عليها، ظنا أنَّه الحكم الصواب في هذه القضيَّة والغريب في الأمر أنَّ المستشرقين تعاملوا مع هذا الأمر على مقتضى ما يجب في دراسة المسيحيّة في أوروبا، فالمسيحية نشأت في بيئة دينيَّة مكتظة بالعوامل المؤثرة من الخارج كالبابلية والآشورية وغيرها على النص الديني المسيحيّ ذاته، ومن ثمَّ كان من السهل على الباحث أن يردّ مكوّنات المسيحيّة إلى عناصرها الأولى. ولكنّ هذا المنهج لا يحقق الموضوعية في دراسة الظواهر الفكرية الإسلامية؛ لأنَّها موضوعات فكريَّة مستقلة وليست مادية تاريخيّة، ومن ثم تكون النتائج المستخلصة من تطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلاميّة خاطئة ومضللة.»[2]

من مطبات المنهج التأريخي جعله من اللغة بشرية وضعية، نافيا الوحي والإلهام، ومن ثمّ يقيس ذلك على النص الديني بأنّه بشري، وهذا خلاف ما يعتقد به المسلمون من أنّ النّص والمعنى من الله سبحانه وتعالى، وليس للموحى إليه وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما أورده محمد شحرور تحت مسمى تاريخانية القصص القرآني قوله: «لقد كان تسجيل التنزيل للقصص المحمدي على صفحاته تسجيلاً لأحداث عاصرها النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم، ومَن حوله من أخبار مشاهدة في الواقع، ولكن هذه الأخبار تبقى لمن لم يعشها ويشاهدها أنباء تنقل تسجيلاً لواقع لم يعايشه ولم يشهده.

ويمكننا القول بأن هذا ينطبق على قصص الأنبياء التي نقلت لنا من فضاء لم نقف منه موقف الشاهد والمعايش. ولقد جاء هذا التسجيل للقصص معبراً عن رؤية الله المتعالية للأحداث كما تمت نتيجة خيارات الناس في عصرهم ولم يكن تسجيل القصص معبراً وناقلاً لما أراده الله بل تسجيلاً لما فعله الإنسان في واقعه متفاعلاً مع الوحي وواقعه بكافة تشكلاته الاجتماعية والفكرية. ولذا فإننا نرى أنه لا يمكن اعتبار القصص جزءا من الرسالة التي بعثها الله وحياً وقصداً من عنده والتي تضمنت وصايا الله للإنسان، فحوت وصايا بتشريع معين تفاعلت مع إنسان ذلك العصر. وتبقى وظيفة القصص مقتصرة على تبيان هذا التفاعل وعلى تحقيق تصديق لهذه الرسالة؛ أي مظنة للعبرة والادكار الناتجين

عن قراءة واعية لجدل العلاقة بين مضمون الرسالة وبين الواقع التاريخي الذي كانت فيه. لكن العقل السلفي اتخذ آيات القصص مستندا قويا لتشريعاته خصوصا فيما يخص رؤيته للعلاقة مع الآخر، فتم التأسيس -في أجواء احتراب الأنبياء مع خصومهم كما ينقلها القصص- لعملية فرز وتكفير للآخر، وتعال عقائدي عليه. فأفضت هذه القراءة إلى توليد فكر إقصائي ينطلق من الإيمان بأن المؤمنين بالأنبياء هم أوصياء على رسالة الله الخالدة، فغدا كل من خالفهم بعد ذلك كمن خالف الأنبياء، فتسقط عليه الصورة المشينة لمخالفي الأنبياء على مر العصور»[3].

انتهج أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم المنهج التأريخي لتوافقه ومراميهم في تجريد النص القرآني من قدسيته، إذ اتخذوا منه سلاحا في صراعاتهم الفكرية، وإقرار توجهاتهم العقدية الفاسدة، والانتصار لآرائهم الكاسدة، وذاك ما سار عليه محمد شحرور في قراءته المعاصرة للقصص القرآني، الذي توسّل ما ذهب إليه المستشرقون في طروحاتهم العقدية التي أرادوا التأسيس لها بناء على مرجعياتهم الفكرية الفلسفية، «لقد عمل بهذا المنهج أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، حيث يرون أنّه يتمتع بالمرونة والحرية وإتاحة قراءات متعدّدة للنص، يقول قائلهم: "ويعدّ هذا المنهج من أمضى الأسلحة التي يمكن اعتمادها في الصراع الفكري الدائر مع التيار الديني، وشلّ فاعلية أسلحته التقليدية، وتعرية أفكاره، وبيان تهافتها، وعدم واقعيتها". ولقد عمل به محمد شحرور خصوصا في موارد قصة نبي الله آدم السلام، إذ طبّق عليها نظرية دارون واعتبرها تطوّراً تاريخيا للطبيعة، وكذلك في مسألة الوحي التي تعتبر من أهم المسائل الأصولية في عملية التفسير، بحيث اعتبر التطوّر في الوحي في الحد الأدنى هو بدائي، شمل هذا الوحي نبي الله إبراهيم عليه السلام وكذلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعدها تطوّر إلى الحد الأعلى للوحي المتمثلة في مرحلة التجرد، وهي مرحلة الرؤية، وهي كلها مادية لم تخرج عن المادة.»[4]

2. دحض شبهة نسبة القصص القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم:

من ترهات المدلس شحرور ومغالطاته العقدية أن من قصص القرآن ما له علاقة بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: «ومن القصص ما له علاقة بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو القصص المحمدي.»[5] يتماهى المنطلق الفكري لمحمد شحرور ومحاولات المستشرقين في أسطرة القصص القرآني، وزعمهم أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد نهل من قصص الكتب السابقة، وذلك بنهجهم المنهج التأريخي، فقد «حاول المستشرقون وعن طريق هذا المنهج بردّ أصول القرآن الكريم إلى مصادر يهودية ونصرانية وقد تضمنت دراسات المستشرقين القطع بذلك ونصت كلماتهم على استقاء القرآن الكريم ومنه القصص من الكتب السابقة. فيقول جولد تسيهر: "لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة

الذين سخروا من رسلهم"، ويصرّح جرجس سال الإنكليزي أن السبب في تضمين القرآن القصص وذلك لتلبية الدعوة وتقبلها نتيجة ما تحويه من ذكر العقاب للذين كذبوا أنبياء الله وآذوهم ويرجع ذلك إلى التوراة بقوله: "قد أخذ كثيرا من هذه القصص أو بعض أحوال منها عن التوراة وأسفار العهد الجديد ولكن معظمها أخذها عن كتب موضوعة وأحاديث كثيرة كانت على ألسنة اليهود والنصارى في عصره فأخذها وأوردها في قرآنه كحقائق راهنة."»[6]

يطلق شحرور خزعبلاته ويتلفظ بترهاته التي لا تسمن ولا تغني من جوع حين يصر على إضافة القصص القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم، وزعمه الباطل أن السيرة النبوية المذكورة في القرآن الكريم من جملة قصصه، وهذا ادعاء آخر لا أصل له، فقصص السيرة النبوية لا تأخذ ذلك الطابع ولم يسمها القرآن الكريم بتلك التسمية، ولكن هدف ذلك المختل فكريا وعقديا إدراج السيرة النبوية ضمن القصص القرآني، محاولا الجمع بينهما ليتسنى له إتمام عمليته التبليسية المتمثلة في إفراغ القصص القرآني من المحتوى التشريعي، كما أنه عاث فسادا بزعمه أن قصص الأمم السابقة بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم غير مشاهَدة، وكذلك أحداث السيرة النبوية للذين سيأتون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، فإنها أيضا غير مشاهَدة، وإنما العمليتين تسجيلية وفقط، لا تحمل تشريعا.

إن زعم المدلس شحرور أن هناك قصص محمدي فهذا باطِل معلوم ولا يقول به مسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأتِ بشيء مِن عنده، حتى ما تعلق بالقصص الذي صح في السنة النبوية، إنما ذلك وحي يوحى، ومن قال بغير هذا فهو مصدق لأقوال المشركين الذين قالوا مثل ذلك، فسبحان الله كيف تتشابه القلوب والأقوال، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)﴾[الطور: 29 - 31]

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)﴾[الحاقة: 40 - 52]

إن القصص القرآني هو الصدق والحق لأن الله تعالى هو الذي قصه علينا، فأحداثه وقعت بعلمه عز وجل وإرادته وقدرته وقدره، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62)﴾[آل عمران: 62]

والقصص القرآني ما هو بالحديث المفترى، إنه من جملة كلام الله عز وجل، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أصدق من الله حديثا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾[يوسف: 111]

والقصص القرآني إنما هو أحسن القصص، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)﴾[يوسف: 3]

والقصص القرآني من أنباء الغيب، وليس كما يدعي شحرور بهتانا وزورا على أنه قصص محمدي، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)﴾[آل عمران: 44]

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)﴾[هود: 49]

ورد في تفسير ابن كثير ما نصه: «يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ [وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هَذِهِ الْقِصَّةُ وأشباهها {مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ} يَعْنِي: مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا [وَجَلِيَّتِهَا]، كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا، {نُوحِيهَا إِلَيْكَ} أَيْ: نُعْلِمُكَ بِهَا وَحْيًا مِنَّا إِلَيْكَ، {مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} أَيْ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ: إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا مِنْهُ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ، وَأَذَاهُمْ لَكَ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بِعِنَايَتِنَا، وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا فَعَلْنَا [بِإِخْوَانِكَ] بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.»[7]

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100)﴾[هود: 100]

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103)﴾[يوسف: 102، 103]

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99)﴾[طه: 99]

والمتأمل في الآيات التي ذكرناها يعلم يقينا بأن القصص رباني من جملة القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، إنه من علم الغيب الذي أطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليه، والآيات صريحة لا مجال فيها للتأويل، والغيب هو ما تفرد به الله عز وجل عن غيره، ولا يمكن لأي أحد أن يطلع على الغيب، فلا يحيط أحد بعلم الله تعالى من شيء، ولا يستطيع له إظهارا إلا من ارتضى الله تعالى أن يطلعه عليه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179)﴾ [آل عمران: 179]

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)﴾ [الأنعام: 59]

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)﴾ [هود: 49]

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)﴾ [النمل: 65]

وهناك آيات في القرآن الكريم ينزه فيها الله سبحانه وتعالى رسوله عن ادعاء معرفة الغيب، معلنا بشريته وأنه صلى الله عليه وسلم لا يملك الضر ولا النفع لأحد، بل مرد ذلك إلى الخالق البارئ سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)﴾ [الجن: 21 - 28].

من بين الشبهات التي اختلقها المستشرقون وسار على دربهم "شحرور" ومن شاكله من المتنطعين المتشدقين، نسبة القصص القرآني للنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو التكرار، بمعنى ورود القصة الواحدة في أكثر من موضع، متغافلين عن أسباب ذلك والحكمة منه، وما ذاك إلا دليل ضلالهم، فليس تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، ومن يضلل الله فما له من هاد، وقد عرضت الباحثة "إيناس الدروغي" بعضا من تلك الشبهات وردّت عليها في قولها: «ما اتخذه المستشرقون دليلا على المصدر البشري للقرآن هو وجود التكرار في القصص القرآني وإن المتتبع للقصص القرآني لا يجد تكرارا فإن في كل موضع تذكر فيه القصة مختلف عن نظيرتها، وهذا التكرار وإن صح التعبير عنه – لم يكن عبثا وإنما كان لتحقيق هدف منشود ومناسبة لكل مقام وللأسباب الأخرى الآتية:

أ. إن بعض القصص يحكي دعوة الأنبياء لأقوامهم وما بذلوه من جهد وما تعرضوا إليه من معارضة تطلب الأمر أن تذكر قصص الأنبياء في سور كثيرة بحسب تناسب موضوعها وشخصيتها ولكن الملاحظ أنه في كل موضع تذكر مشاهد معينة تختلف عن غيرها.

ب. بعض القصص التي ترشد إلى أهداف تربوية واجتماعية ونفسية ولكل مقام مقال فنزلت لتوضيح أمر معين أو إرشاد المسلمين إلى قضية معينة محددة مثل قصة النبي عيسى (عليه السلام) التي ذكرت أقل من غيرها وقصة النبي يوسف (عليه السلام) التي ذكرت مرة واحدة وغيرها بما يتحقق الهدف والقصد.

والتكرار الذي أدعي لم يكن بأسلوب واحد وإنما كان بأساليب لأن الغرض الأساسي هو تهيئة النفس لتقبل العبرة من المضمون وإيقاظ الفكر فمرة بالسرد وأخرى بالإجمال وهكذا بما تقتضيه متطلبات الإقناع.

وإذا كانت الشبهات حول ما نقله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أخبار الأمم الماضية والتي استقاها من اليهودية والنصرانية فما بال ذكر القرآن الكريم أحداث غيبية وما بال استقاءها، حيث أخبر عن "أمور سوف تقع في المستقبل وقد تحقق فعلا وقوعها، ومن ذلك ما أخبر به القرآن عن دولة الروم المسيحية التي غلبتها دولة الفرس أولا، ثم أخبر القرآن بأن دولة الروم المغلوبة سوف تنتصر بعد بضع سنين".»[8]

كان على شحرور وشرذمته أن يتدبر قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾ [سورة النساء الآية 82] يعني أن القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، ولو كان من عند غير الله لكان يحتوي بين دفتيه اختلافات كثيرة تناقض وحقائق الأمور التاريخية والكونية، فهل يستقيم مع هذا ادعاء شحرور نسبته القصص القرآني لمحمد صلى الله عليه وسلم.

3. دحض شبهة أن القصص القرآني خال من التشريع:

يقول شحرور: «ونعني بذلك أن هذه القصص من التاريخ لا تشريع فيها.»[9]، وله في موضع آخر: «ولذا فإننا نرى أنه لا يمكن اعتبار القصص جزءا من الرسالة التي بعثها الله وحياً وقصداً من عنده والتي تضمنت وصايا الله للإنسان، فحوت وصايا بتشريع معين تفاعلت مع إنسان ذلك العصر. وتبقى وظيفة القصص مقتصرة على تبيان هذا التفاعل وعلى تحقيق تصديق لهذه الرسالة؛ أي مظنة للعبرة والادكار الناتجين عن قراءة واعية لجدل العلاقة بين مضمون الرسالة وبين الواقع التاريخي الذي كانت فيه. لكن العقل السلفي اتخذ آيات القصص مستندا قويا لتشريعاته خصوصا فيما يخص رؤيته للعلاقة مع الآخر.»[10]

يسوّق محمد شحرور إلى شبهة أن القصص القرآني خال من التشريع، وذاك مردود عليه، ولو كان ذا علم لاطّلع على ذلك في عديد الكتب الفقهية، ولكن ليست تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

يقول المطيري: «دأب العلماء على أخذ الكثير من الأحكام الفقهية من القصص القرآنية مثل صحة أنكحة الكفار المأخوذ من قوله تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ...}[القصص:9]، وجواز كون المهر عملا مأخوذ من قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ... }[القصص:27] وغيرها، بل أخذوا منها أحكاما عقدية في أصول اعتقاد المسلمين، فإبطال القصص القرآنية يبطل الكثير من الأحكام، لأنه إذا كانت القصة مكذوبة فلا يجوز أخذ الأحكام منها، وهذا لم يقل به أحد.»[11]

4. خاتمة:

من خلال هذا البحث حاولنا عرض بعض شبهات المدلس شحرور، وكشف البعد الإستشراقي في كتابه "القصص القرآني-قراءة معاصرة" في محاولة منا دحضها بما يتوافق والشرع القويم، فالباطل زاهق إذ يُقذف عليه بالحق.

المنهج التأريخي هو الطريقة المنتهجة في دراسة التاريخ وفهم الماضي، يهدف إلى تحليل الأحداث وتفسيرها وفق ما يتوفر من مصادر متاحة، وذاك ما توسله المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم عامة والقصص منه خاصة، وسبيلهم في ذلك التشكيك في مصادر الوحي ونفث سموم شبهاتهم.

توسّل محمد شحرور ما ذهب إليه المستشرقون في طروحاتهم العقدية التي أرادوا التأسيس لها بناء على مرجعياتهم الفكرية الفلسفية، إذ حاول التسويق لأفكاره تحت مسمى القراءة المعاصرة، متوسّلا المنهج التأريخي الذي يتماشى وآراءه الفاسدة وتأويلاته الكاسدة.

يتماهي المنطلق الفكري لمحمد شحرور ومحاولات المستشرقين في أسطرة القصص القرآني، وزعمهم أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد نهل من قصص الكتب السابقة، وذلك بنهجهم المنهج التأريخي، وذاك مذهب الكفار والجاحدين على مرّ الدهور والعصور، الذين لا همّ لهم سوى تفريغ نصوص الوحيين (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) من القدسية، فجاءت ترهاتهم وفق ما أملاه عليهم هواهم فلا يتبعون في قراءاتهم إلا الظن، والظن لا يغني من الحق شيئا، فالقصص القرآني مما أنزله الله تعالى في كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن حديثا يفترى ولكن تصديق الذي أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أصدق من الله حديثا.

حاول محمد شحرور إضافة القصص القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم، وزعمه الباطل أن السيرة النبوية المذكورة في القرآن الكريم من جملة قصصه، وهذا ادعاء لا أصل له، وإنما الغرض منه إفراغ القصص القرآني من المحتوى التشريعي.

الهوامش:

[1] محمد شحرور، القصص القرآني-قراءة معاصرة، مج1، ص109.

[2] محمود كيشانه، القصص القرآني في مرآة الاستشراق-دراسة نقدية، ص121 وما بعدها.

[3] محمد شحرور، القصص القرآني-قراءة معاصرة، ج1، ص122 وما بعدها.

[4] محمد حسن زماني وسلام ساجت، تأثر الآراء القرآنية لمحمد شحرور بالمنهج التاريخي الاستشراقي ونقده، ص28.

[5] محمد شحرور، القصص القرآني-قراءة معاصرة، ج1، ص109.

[6] إيناس جاسم الدروغي، الأثر والتأثر في دراسة المستشرقين للقرآن الكريم-القصص القرآني أنموذجا-، ص385 وما بعدها.

[7] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص328.

[8] إيناس جاسم الدروغي، الأثر والتأثر في دراسة المستشرقين للقرآن الكريم-القصص القرآني أنموذجا-، ص388 وما بعدها.

[9] محمد شحرور، القصص القرآني-قراءة معاصرة، ج1، ص109.

[10] المرجع نفسه، ج1، ص122 وما بعدها.

[11] عبد المحسن بن زين بن متعب المطيري، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، ص350.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم برواية حفص.

* ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، (1420هـ/1999م).

* إيناس جاسم الدروغي، الأثر والتأثر في دراسة المستشرقين للقرآن الكريم-القصص القرآني أنموذجا-، مجلة كلية الشيخ الطوسي الجامعة، النجف-العراق، ع12، (ديسمبر 2021م).

* عبد المحسن بن زبن بن متعب المطيري، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط1، (1427هـ/2006م).

* محمد حسن زماني وسلام ساجت، تأثر الآراء القرآنية لمحمد شحرور بالمنهج التاريخي الاستشراقي ونقده، مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، النجف-العراق، ع27، (صيف2021م).

* محمد شحرور، القصص القرآني-قراءة معاصرة، دار الساقي بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة، بيروت-لبنان، ط1، (2010م).

* محمود كيشانه، القصص القرآني في مرآة الاستشراق-دراسة نقدية، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، النجف-العراق، ط1، (1442هـ/2020م).